

كيف بدأ الإصلاح في الأزهر

وكيف فصل الآن إليه

الأستاذ عبد المتعال الصعدي



كلما صرفت نفسي عن الكلام في إصلاح الأزهر عاودها الحنين إليه . وكيف أنسى عقيدة أشربت حبها منذ الطلب ، ومضى على جهادى فيها أكثر من عشرين عاماً ، ولقيت فيها من السمت ما لقيت ، وبذلت من التضحية ما بذلت ، خالصاً لوجه الإصلاح ، لا أبتغى بذلك عوضاً ، ولا أقصد أن أجريه منها وقد قرأت ما كتبه صديق الأستاذ الجليل محمد الدقن تعليقاً على محاضرة صديق الأستاذ الكبير محمود شلتوت ، فوجدتهما يرجعان بقاء الأزهر على جهوده في هذا المهد إلى الكتب القديمة ، لأن الأزهريين لا يزالون يعملون عليها في جميع مراحل التعليم ، ولا تزال الدراسة في المعاهد الدينية متجهة إلى شرح ألفاظها ، وتضييع الزمن في محامكات اللفظية التي لا طائل تحتها . وقد ذكرنى هذا بما نشرته في أوائل هذا المهد على صفحات مجلة الرسالة وغيرها ، وذلك حين قت بنقد ما يشكوان الآن منه بعد فوات الوقت ، ففضض لذلك من كان يناصر هذا المهد لغير الإصلاح ، وكان لهذا الغضب أثره في حرمانى من بعض حقوقى ، فقبلت ذلك راضياً ، وصبرت عليه إلى وقتنا هذا في غير شكوى ولا تالم ، لأن من ينصب نفسه للجهاد لا تؤله التضحية ، وقد يسر بها كما يسر أصحاب اللبانات بقضائها . ولو أن الصديقين الفاضلين ضما صوتيهما إلى صوتى في ذلك الوقت لكان لذلك منا شأن آخر ، ولم ينظر إليه تلك النظرة التي قوبل بها صوتى ، لأنهما كانا محل الثقة من رجال هذا المهد ، وكانت كلمتهما مسموعة عندهم

وما علينا من هذا كله ، فما نريد الآن إلا أن نبين كيف فصل الآن إلى إصلاح الأزهر ، وقد مضى على معالجته نصف

قرن أو أكثر ، وهو ما يقرب إلا ليمد ، ولا يسهل أمره إلا ليمسر . وما نحن أولاء الآن لا تزال كما كنا قبل معالجة ذلك الإصلاح ، نألف الجود ونمض عليه بالتواجد ، ونقف من الإصلاح الذى يقضى على هذا الجود موقف المعارض العائد . ولا يزال الذين يؤمنون بيننا بهذا الإصلاح يمدون على الأصابع ، وليس لديهم من القوة ما يمكنهم أن يقضوا به على ذلك التمصب للجمود ، وقد بذلوا من التضحية في الإصلاح ما بذلوا ، ولكن التضحية وحدها لا تفيد في القضاء على التمصب ، وإنما يفيد في ذلك القوة الغالبة ، والسلطان القاهر ، والتاريخ على ذلك شاهد عادل

ومن ينظر إلى بدء الإصلاح في الأزهر يجد أنه لم يتم إلا بتلك القوة ، ولم يأخذ سبيله فيه إلا بعد أن تدخلت الحكومة في أمره ، وقد كان تدخلها في ذلك بعد أن لجأ إليها المصلحون من رجال الأزهر ، وأقنعوها بصواب ما يدعون إليه من الإصلاح ، ولولا تدخلها في ذلك ما خطا الأزهر في الإصلاح تلك الخطى ، ولبقى إلى وقتنا قابلاً في عزله ، راضياً بالانكماش الذى كان راضياً به ، ولم يكن هذا الانكماش في شيء من ديننا ، وإنما هو من الرهبانية التي أباحها الإسلام لأهلها

وكان الذى قام بإقناع الحكومة بذلك هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، فقد ذكر السيد محمد رشيد رضا في تاريخه أنه لما جلس عباس باشا حلمى على كرسى الخديوية تجددت للبلاد المصرية آمال ، وتوجهت إلى أعمال يقصد منها إزالة الاحتلال ، وكان الشيخ محمد عبده يرى أن إزالة الاحتلال لا يمكن أن يحل بوسيلة السياسة إلا باتفاق الدول ، وأن الرجاء في اتفاقهم على ذلك بعيد ، فأراد أن يكون حظه من حب الخديو للعمل السرى في إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف ، فاقبل به وحظى عنده وكاشفه برأيه في إصلاحها ، فقال له : إن لدى أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة ، فيمكنه أن يصلح الأمة كلها بإصلاحها ، وهى دينية ويجب المبادرة بإصلاحها . ثم ذكر له كليات هذا الإصلاح ، ولم يخرج من عنده حتى أقنعه به

إلى ذلك بكتاني (تقد نظام التعليم الحديث للأزهر الشريف) قامت على قيامتهم ، ولم تهدأ نأثرهم إلا بعد أن أزلوا بي من العقاب ما أزلوا ، وكانوا يريدون عزلي من المهاد الدينية ، فتداركني لطف الله تعالى ، وبقيت إلى وقتنا هذا مخلصاً لعقيدتي لا يثنيني عنها ما يفوتني بسبب إخلاصي لها

وقد أراد أستاذنا الشيخ المراغي في عهده الأول أن يصل بالإصلاح إلى هذه الغاية التي أرادها الأستاذ الإمام ، وأن يخطو في الإصلاح خطوة جريئة يقصد بها وجه الله تعالى ، ولا يُبالى بما تحذره من ضجة وصريح ، فقد قرنت كل الإصلاحات العظيمة في العالم بمثل هذه الضجة ، ولكنه اعترل منصبه بعد فترة وجيزة

وها هو ذا قد عاد إلى منصبه مرضياً عنه كل الرضا من ولى الأمر ، فما عليه إلا أن يستغل تلك الفرصة السانحة كما استغلها الأستاذ الإمام من قبله ، ويستدرك بهذا ما فاتته في المرة الأولى ، وقد هيئت له أسباب النجاح ، ومُدَّ له في منصبه حتى ذلت له العقبات ، وزال ما كان يعترض تلك الخطوة الجريئة في الإصلاح

عبد المتعال الصمبوري

ففي هذا الوقت أخذت الحكومة في إصلاح الأزهر ، وقد بدأت أولاً بتأليف مجلس إدارة للأزهر مؤلف من أكابر علماء المذاهب الأربعة ، وأضيف إليهم الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان على أنهما عضوان من قبيل الحكومة ، فسار هذا المجلس بهمة صادقة في إصلاح الأزهر ، وسلك في ذلك سُنَّةَ التدرج ليأمن الاصطدام بأعداء الإصلاح ، وبأخذ الأزهرين به شيئاً فشيئاً ، وكانت الحكومة من ورائه ترعاه بالمساعدة ، وتصد عنه كيد هؤلاء الأعداء ، وتأخذهم بالشدة إذا جنحوا إلى الثورة ، حتى لا تنووا واستكانوا . ونجح هذا المجلس في إقامة الدعام الأولى للإصلاح ، فآلف أهل الأزهر النظام في أعمالهم ودروسهم ، وأقبلوا على دراسة العلوم الحديثة التي كانوا يتفرون من دراستها

وكان الشيخ محمد عبده يرى أن ما نجحوا فيه من ذلك يجب أن يكون وسيلة لا غاية ، لأن الإصلاح الحقيقي لا يصح أن يقف عند هذه الحدود ، بل يجب أن يتمداها إلى فتح الأذهان المغفلة في الأزهر ، وكسر قيود التقليد في العلوم القديمة ، حتى تدخلها آثار التجديد ، وتخلع تلك الأثواب البالية ، وتعود إلى ما كانت عليه علومها فتفتح العقول ، وتربي العلماء المُجدِّدين ، والأئمة السُّبرِّزين . وقد سأله السيد محمد رشيد رضا عن رأيه فيما قاموا به من إصلاح الأزهر ، فذكر أنه لم يحصل شيء من الإصلاح يذكر إلى ذلك الوقت ، وأنه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة في الإصلاح اغتناماً للفرصة ، فأشير عليه بوجوب التدرج في الإصلاح ، وأنه لا بد له من المسيرة ، وإن كان يخشى أن تضيق الفرصة بما يسمونه التدرج

وقد أتى القوم بعد الأستاذ الإمام فساروا في ذلك على أنه غاية لا وسيلة ، ووقفوا عند هذه الحدود التي لا يصح أن يقف عندها الإصلاح ، فلم ينهضوا بالأزهر إلى ما يرجي له في هذا العصر ، وبقيت علومه القديمة في أثوابها البالية التي ترهق الناس فيها ، وتجهلها محاكمات لفظية لا فائدة في دراستها . وقد نهتهم

مجموعات الرسائل

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأمان الآتية :
السنة الأولى في مجلد واحد ١٠٠ قرش ،
و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات :
الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة
والثامنة والتاسعة والعاشر في مجلدين . وذلك
عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش في الداخل
وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً
في الخارج عن كل مجلد .